

## فكر

## ربع قرن على الغياب والتغييب

# الأب يواكيم مبارك عانق الإسلام وأمنت بالعروبة ورفع راية فلسطين

## المشركي الذي دافع عن هارونيّة حضاية متنوّرة

**سركيس ابوزيد**

في 24 أيار (مايو) 1995، توفي في باريس العلامة الأب يواكيم مبارك المتخصّص في العلوم الإسلاميّة العربيّة والنّهوضيّة والمدافع عن فلسطين والمحزّك للحوار الإسلامي المسيحي. بعد ربع قرن على غيابه، ماذا فعلنا من أجل تكريمه ونشر نتاجه وتعريف الجيل الجديد بفكره وريادته؟ ماذا فعلت الكنيسة المارونية من أجل أحد أبطالها الرواد في العلم والتقوى؟ لماذا هو مغيب عن الحضور الفكري والإنساني؟ ولد في 20 تموز (يوليو) 1924 في بلدة كفرصباغ قضاء زُغرتا الزاوية. تلقى علومه في «كليريكة غزير» و«جامعة القديس يوسف – بيروت»، و«كليريكة سان سوليبس» في باريس. سمي كاهناً سنة 1947، ودرس في جامعات فرنسا وبلجيكا،

## اعتبر أنّ المنطقة تعاني من داء يئ: الاحتلال الصهيوني في فلسطين والتخلف الاقتصادي والاجتماعي

وشارك في أعمال المجمع المسكوني الثاني (1965).

بعد غياب أربعين سنة قضاه في فرنسا، يتعلم ويبحث ويؤلف. عاد الخوري يواكيم مبارك في عام 1984 إلى لبنان حاملاً حلمه بإصلاح

كنيسته ووطنه، صارحاً: «أفصح يا لبنان أيوبك، تلك الأبواب الموصدة بوجهي».

خلاصة تجربته ومسيرته، جسدها في مشروع حياته وهو الدعوة إلى «المجمع اللبناني الثاني» (المجمع اللبناني الأول عُقد عام 1736)، على أمل أن يكون المجمع الطريق إلى الإصلاح والتجديد من أجل إحداث نهضة في الكنيسة تعيدها إلى دور الريادة، بعدما رأى المارونية تتراجع وتقهقر وتندثر. وكان قد عبّر على الجرح والتزم الصمت طوال أربعين سنة وأكثر، مع زملاء له عملوا من أجل كنيسة البشر لا الحجر، لأن الغاية هي في الإنسان لا في السبت، وإصلاح السبب لإطلاق حرية الإنسان.

عاد إلى لبنان، ليطرح مشروعه الإصلاحية رداً على ما حل بالمارونية جراء الحرب، فالتهجير الذي تسببت به هذه الحرب، يمثل أول تراجع للمارونية في امتدادها المتواصل من شمال سوريا إلى لبنان إلى الأراضي المقدسة والشرق فالغرب، بخاصة أن هذا التراجع الجغرافي يبخر وراء ترجعها أكثر خطورة على صعيد الإيمان والأخلاق الخاصة والعامّة، ويهدد بفقدان المارونية قاعدتها اللبنانيّة. كما أنّ الوضع الكنسي أصبح مهدداً بالفوضى على مثال الوضع السياسي والاجتماعي في حال عدلت السلطة الكنسية عن تبنى المشاريع الإصلاحية المطلقة من القاعد.

انكث في صومعته في تكوين على العمل الجمعي الإصلاحي، فوضع خمسة خطوط عرضية للعمل الإصلاحي وقد حددها كما يلي:

الخطّ الأول: «إحياء التراث السرياني الأنطاكي، لأن هذا العمق الروحاني يجمع كل العائلات الأنطاكية على تنوّعها بالرغم من اختلافاتها»،

وكان هدفه توحيد الكنائس الشرقية، خاصة الكاثوليكية والأورثوذكسية، في مجمع واحد.

الخطّ الثّاني: إطلاق الرسالة الإنجيلية في التعليم والنشر والإبداع الثقافي، وتغيير صورة الكنيسة التي تشوّمت في الحرب.

الخطّ الثالث: الالتزام الوطني «الذي يحمينا من التقوى في الطائفة المغلقة والخطّ الأصولي المرفوض، وهو الذي يقتضي منّا الانفتاح

على المشاركة والارتباط مع الغير لتكون مثالا عالميا للعيش الواحد الكريم والحر».

الخطّ الرابع: «أن تستخرّ كنيستنا كل طاقاتها في سبيل التركي

الاجتماعي والاقتصادي وفي سبيل الإنماء، أي أن تحقّق كنيستنا تضامنها الفعلي مع عامّة الناس...

مع أصالتها الشعبيّة».

الخطّ الخامس: تنظيم البيت الماروني، أي إعادة تنظيم المارونية، انطاكيا واغترابيا».

**موارنة النهضة العربية**

لم تتجاوز السلطات الكنسية مع تطعااته الإصلاحية، فتح تطويق مصادراته، وهذا الموقف السلبى من الأب يواكيم ليس مستجداً، بل هو نوع من العقاب ضد مسيرته ومواقفه. لقد سبق واستبعد من السلطة الكنسية لأنه تميز بالتجدد والإصلاح والانفتاح- فهو دعا إلى مشروع للاتي، وكان لبنانياً وشرقياً بمارونية حضارية لا تختصر بطقس ولا تتحجر في تقليد ولا تجتد في مؤسسة.

أضاء على مشاركة الموارنة الفعالة في مجالات النهضة العربية، وهو



معي وادي قاديشا (شمال لبنان) العام 1987

القاتل «كان المطران جرمانوس فرجات بين حلب وروما ولبنان، أول واضع لنقواعد العربية في الحدادة، أي سابقاً بأكثر من قرن، عمل اهل الشام ولبنان عندما اطلقوا الحدادة العربية في وادي النبل، وهذا هو بالفعل الحدث الأكبر الذي جعلنا نتعرف إلى أئمة النهضة في أعمال بطرس البستاني وأحمد فارس الشدياق وخليل سركيس وأمين الريحاني وجبران خليل جبران ومي زيادة».

ويستخلص: «خصّصت الموارنة



بهذا العرض لأشير بوضوح إلى أن جميع الذين ذكرتهم وغيرهم، هم من الأبحاح الموارنة لأنهم من الموارنة الراضين الاستبشلمنت الماروني... هذا إذا هو البعد الثقافي الماروني الأصولى في النهضة، وهذا هو البعد الراضى في حقيقته المثالية وفي صحته الإبداعية،أي في النقد الذاتي الذي هو في أساس كل ثقافة وتلاقٍ ونهضة».

الخوري يواكيم مبارك هو استمرار لبعد ماروني أساسي تجسد في التاريخ والتراث «هو بعد العصيان

في مرحلة الصليبيين حكم سائر

### جورج قرم: معلّم ومفكّر موسوعي

يسرني أن أضع بين يديّ القارئ العربي بعض الدراسات من بين العديد منها ومن الكتب القيّمة للأب يواكيم مبارك، وهو ذاك العلامة بكل معنى الكلمة الذي تجاهله وطنه رغم غنى التراث الفكري والثقافي والتاريخي الذي تركه لنا.

صحيح أن عدداً كبيراً من أعماله الفكرية كتّبت باللغة الفرنسية نظراً لإقامته في فرنسا مدة طويلة وحيازته ثلاث شهادات دكتوراه من جامعة باريس، تدور حول تاريخ العلاقات المسيحية والإسلامية منذ نشوء الديانة الإسلامية، ما يميّز أعمال هذه الشخصية الغدّة من الناحية الفكرية كما من الناحية الإنسانية، هو هذه النظرة الشاملة المنفتحة والثاقبة ذات الأفاق الحاضرة والمستقبلية البُناة والمتفائلة لتأمين الانسجام والمودة ليس بين أبناء لبنان فقط، بل أيضاً بين العرب أنفسهم.

إنّ مقارنة يواكيم مبارك لتاريخ العلاقات المسيحية الإسلامية مقاربة موضوعية، وإنّ كان متجزئاً في المسيحية ويؤمن بها إيماناً ساطعاً مفتوحاً على أبنائها الديانات الأخرى، وهو بحث باستمرار عن القواسم المشتركة،

# الأخبار

السبت 20-06-2020 العدد 4079

## 2-3

في خلوته الدمشقية، وكان موضوع المراسلة بين يوسف بك كرم والأمير عبد القادر قيام مملكة عربية».

بعض غلاة الإنعزالية اتهموه بأنه

«عاد إلى مارونيته بعد رحلة طويلة

في الإسلام والمسكونية والسياسة»، وفي الأتهام إشارة إلى غوصه بعمق وانفتاح على العالم الإسلامي، فكان خطاى لكلمة اعرابية لها طابع المسيحية» (1972)، واهتمامه بالحوار المسيحي الإسلامي،

وصداقته بكار رجال الدين والعلم في الإسلام، منهم الإسام موسى الصدر وكمال جنبلاط، وتبوّه مركز مستشار ومعاون في «معهد دار الإسلام» (جامعة الأزهر) في القاهرة (1954 – 1975). كما كان يدافع عن حق الشعب الفلسطيني والقضايا العربية العادلة، ولم «يتسامح مع من ينادي بلبنان الصغير المنحصر بين نهر الموت وجسر المدفون»، ورفض أن تتحول المارونية من كنيسة إلى طائفة لا ينظر إلا في مصالح أعضائها.

نظر إلى الموارنة من ضمن البيئة الواسعة التي يعيشون فيها، في «رسالة إلى أبناء وطني من المسحيين»، أطلق صرخة وجهها في أيار (مايو) 1969 جاء فيها: «تعاني المنطقة التي ينتمي إليها لبنان من داءين عظيمين: الاحتلال الصهيوني في فلسطين والتخلف الاقتصادي والاجتماعي، وكلاهما أيضاً مفسدان في الأرض، وهذا اتصال وتجانب بين الظاهريين... من هنا ضرورة القيام بواجبٍ في وقت مشرّع، وأنت الموجود في الوجدان الذي ناهض المتصرفية، لا لأهداف وارساء العدالة الاجتماعية في العالم العربي».

«إذا شاء المسيحي اللبناني أن يتحرر من الخوف والأناثية على حد سواء، وأن يتجاوز مرحلة التعايش التي كانت ضرورية للوصول إلى مؤلّفة متبادلة، عليه الدفاع عن الجماهير

العربية المحرومة التي وقعت كفراء الصهيوني والمستبد المحلي الماجور للقوى الأجنبية».

ما هو مفهومه للعروبة التي رفعها إلى قضية؟ يشرح الأب مبارك: «من يقول عروبة arabite يرفض العرواية arabisme، وهي نقل خطاى لكلمة اعرابية لها طابع بدوي عنصري. لذلك التزم بالعروبة بقوة لقاء واتحاد تنتشر دون أية تفرقة وتمييز على مجمل العالم العربي وسكانه، فألى المسلمين، يحتاج المسيحيون لتشكيل أمة المؤمنين التي نأدى بها القرآن».

ويستخلص: «إن الالتزام الصادق بالعروبة يتطلب في أن واحد تحرير المجتمعات المسيحية والإسلامية من التأثير الطائفي ومن كل آثار الأنظمة الدينية البالية، لتتطور نحو نموذج مجتمعي ديموقراطي منساو، ويؤمن للجميع الحقوق والأمال نفسها».

الموارنة الأفضة والعصاة والمتمردين ودعاة الإصلاح والتجديد، وسعى إلى جمع لبناني ثان، لكنه لم يفلح بسبب الماطلة والتردد والفوضى في الكنيسة المارونية، فاختار مفاه الطوعي في صومعته الباريسية بعدما أغلّقه في وجهه أبواب الكنيسة المارونية، فكتأت وصيته أن يتحد في فرنسا طالما أبواب الإصلاح والتجديد مغلقة، فبدأ يواكيم مبارك، رغم مساعيك وبعد ربع قرن على غيابه، ما زالت أبواب الإصلاح والتجديد في الكنيسة المارونية غير مشرّعة، وأنت الموجود في الوجدان الأنطاكي والمسكوني مغيب عن الحضور في الوعي العام لأبناء الرعية والجمهور المشرقي، فأين الكنيسة اليوم من دعوتك إلى الهويّة الأنطاكية والتمسك الزميد؟ كانت ضرورية للوصول إلى مؤلّفة متبادلة، عليه الدفاع عن الجماهير المتطور».

انصفا الخوري يواكيم: أولاً اعترفوا بدوره الرائد في الإصلاح الديني، وثانياً التزموا نهجه الفكري الأخلاقي التجديدي، وأخيراً كزموه خلال هذه السنة وهي ذكرى مرور ربع قرن على غيابه. نداء موجه أولاً إلى الكنيسة التي نذر حياته فيها وأعطاهما وزناً وازمنة من فكره وزهده. كما ادعو محبيه إلى تجسيد نهجه في مبادرات وأعمال تعيد الروح إلى رسالته الأنطاكية وتجدد دوره في مشروع للاتي يشمل الإصلاح الكنسي والمؤلّفة المسيحية الإسلامية والعلمانية المشرقية والعروية الحضارية.

\* كاتب وناشر لبناني



صورة الأب مبارك تعود إلى 1947 عام ترسيمه كاهنًا

## فكرة أخرى عن لبنان

**وليد شرارة**

لا يمكن فصل عودة نعمة الفيديالية، على لسان بعض الزعامات الطائفية اللبنانية، عن تقاعم الأئمة العامة للنظام اللبناني، خيال هذه الزعامات محدود جداً في الحقيقة، وهي تلجأ باستمرار إلى التكتيكات المكشوفة نفسها، أي التسعير الطائفي والقاء الالامة على «الأخرين»، لتفسير ما وصلت إليه أوضاع البلاد من انهيار كامل. منعاً لحسابتها وأمثالها من الزعامات الطائفية على هذا الأمر، والقطع مع الخيارات الاقتصادية والاجتماعية الكبرى التي أنتجت الوضع الراهن. حالة الحرب الأهلية الباردة وإعادة إنتاج الانقسام الأهلي الدائم هما شرطان لبقاء هذه الزعامات في مواقعها منذ نشأة الكيان اللبناني. لم تمنع هذه الوقائع العنيدة الأب يواكيم مبارك، من التمسك بفكرة أخرى عن لبنان الممكن، استمدّها من عمق إيمانه بدين المسيح، وقناعته بأن المشتركات الكبرى بينه وبين الإسلام، وأولها الانحياز للإنسان، ولحقّه بحياة كريمة، تشكل أساساً صلباً للإصلاح الداخلي، والمسامة في نهضة العرب، وفي النضال من أجل عالم أكثر عدلاً. فأين قرية كفرصباغ وسليل عائلة كهنة خدموا الرعية في وادي قاديشا، اندرج عملياً من خلال أعماله الفكرية ومواقفه السياسية، في التيار الثوري الذي عرّف المسيحية على أنها الانحياز للإنسان عامة، وللفقر، خاصة، أي لاهوت التحرير الذي لعب دوراً مركزياً في المعركة ضد الاستعمار والاستغلال والفضل العنصري والاستبداد، في بلدان الجنوب، خلال ستينيات القرن الماضي وسبعينات وثمانينات.

بعد إتمام علومه في إكليريكية غزير المارونية، وفي جامعة القديس يوسف، سافر إلى فرنسا لإكمال دراسته الجامعية، وقدم أطروحته «ابراهيم في القرآن الكريم»، لنيل الدكتوراه في سنة 1951. والتحق بعدها، كباحث، بالمركز الوطني للدراسات العلمية. ورغم أن إنتاجه الفكري الغزير تناول قضايا لاوهوتية وفلسفية وتاريخية وسياسية متعددة، فإنّ اللافت هو إيلاؤه أهمية مركزية للإسلام، عقيدة وتاريخاً وثقافةً، في إسهاماته. ولا شك في أن اعتقاده بوجود «جنود ابراهيمية مشتركة» التي نجم عنه علاقة حميمة بين الإسلام والسجدة، هو بين دوافع هذا الاهتمام. للرب مبارك عشرات المؤلفات والمقالات عن الإسلام، هدفت جميعها إلى تعريف الجمهور الناطق باللغة الفرنسية مجدداً بهذا الدين، وتتابع الشعوب التي تعتنقه وثقافتها. لقد فعل ذلك بتمياز وصل إلى حدّ التناقص مع أعمال غالبية المستشرقين، ومقارباتهم المشحونة بالعداء، والنقطة العظيمة والمسقة... تلك التي «اخترعت شرقاً من منظور الغرب»، كما يقول ابوارد سعيد. خاض مبارك من خلال جهده العلمي معركة فكرية - سياسية ضد الأطروحات «العلمية» التي شكلت مرتكزاً أيديولوجياً للاستعمار ورسالته، «الحضارية»، في مواجهة الإسلام «دين الانغلاق والتعصب واللاعلمانية».

إن مراجعة آراء وكتابات كبار المفكرين الفرنسيين حول الإسلام، كارنست رينان والكسي دو توكفيل وجول فيري، تكفي للتنبّث من هيمنة مثل هذه الأطروحات. وما يزيد من أهمية جهد الأب مبارك، تزامنه مع احتدام الصراع بين الاستعمار الفرنسي وحركات التحرّر في المنطقة العربية، خصوصاً في بلدان المغرب العربي، وما رافقه من تعبئة أيديولوجية معادية للحرب والمسلمين، ولعلّ الإسلاموفوبيا، أي كراهية الإسلام، المتفشّية في الغرب حالياً، تمثّل امتداداً لها. إضافة إلى دوره المذكور، باق الأب مبارك عن القضية الفلسطينية، وعمل على دحض حجج الصهاينة وأصدقائهم، وسرديتهم القائمة على تاويل النص الثوراتي لإسباغ الشرعية التاريخية على المشروع الاستيطاني الصهيوني.

في محاضرة ألقاها في الندوة اللبنانية بتاريخ 31 أيار 1965، اعتبر الأب مبارك أن «لبناناً يريد نفسه مسيحياً صرفاً، أو بأغلبية مسيحية، يفقد مبرر وجوده، ويحكم على نفسه، كما فعلت إسرائيل، وأن لبناناً يريد نفسه إسلامياً صرفاً أو بأغلبية إسلامية، يحكم على نفسه أيضاً». لم تحقق المسيحية ذاتها الآ يوم خرجت من البيئة اليهودية في «أورشليم» تلك البيئة المغلقة على نفسها قومياً وقانونياً وثقافياً، لتستقر في أنطاكية. ففي انطاكية حمل رسل المسيح للمرة الأولى، اسم مسيحين، وقد أصبحوا حقاً كذلك بهذا الانتقال المحزّز والمسكوني العالبي... إن بدء العهد الإسلامي يورّخ هجرة النبي لا بولادته، لم ذلك؛ لأنه يوم قطع محمد روابط الدم والقبيلة ليجيك روابط جديدة، وميثاق شرف وحق لأناس غرباء، عن وطنه، يموكأ بيز إلى الوجود مجتمع جديد وولد الإسلام». ويضيف الأب مبارك: «وهذا بالضبط ما تفعله عندما تنوعد نحن، مسيحيين ومسلمين من كل ملة، على التلاقي في لبنان، فنقر إذ ذاك بأن مصيرنا ليس في الانغلاق، بل في الانفتاح بعضنا على بعض، وبالتفاهم وتبادل التقدير، وخدمة سائر أبناء الإنسانية». النظام اللبناني دخل في طور الاحتضار. هذا ما تشي به الأئمة المستفحلة حالياً، ويشي به الحديث المتكرر لبعضهم عن التقسيم باسم الفدرالية. إن بقاء لبنان بات مرتبطاً بتجديد يستلهم رؤية يواكيم مبارك.